مستقبل الشعر

شاكر لعيبي

منذ ثلاثين عاما وأنا أكتب الشعر من دون أن أرى في الأفق مستقبلاً لي سواه، أكتبه وكأنني أمارس، ظاهريا، عبثاً وعَدَماً خلاقاً طلع الكون منه. للوهلة الأولى قد يبدو للقارئ العجول أننا قد وضعنا مشكلة عريضة مثل مشكلة مستقبل الشعر في إطار تجربة محض شخصية- ولا يستطيع شاعرٌ إلا أن يفعل ذلك في يقيني مهما حاول التقرب من الحقل التحليلي-، لكن تأطيرا شخصيا مثل تأطيرنا لن يرى الأمر إلا بموضوعية عالية من الجهة الأخرى. ومهما بدا هذا الأمر متفارقا ومتناقضا فهو يفضح أن الشعراء، بفعل اتصالهم الحميم لكن السري (وهو حميم لأنه سري وبالعكس) بجمهورٍ ما، جمهورٍ افتراضي أو فعلي ما، يَعرِفون حدود مسألة مستقبل الشعر ويَعرِفونها بدقة أكثر قليلا من أقرانهم. فالمتلقون الكرام والنقاد الموضوعيون والذاتيون قد لا يحتفظون بالحرقة الكاوية ذاتها عن الشعر ومستقبله الغامض بإحكام، بفعل احتكامهم لشروط أخرى (أخرى!) مهما كانت درجات الأريحية التي ترج قلوبهم النبيلة.

منذ ثلاثين عاماً وأنا أخاطب مستقبلا للشعر مجهول الملامح، كتابةً شعريةً أو تحليلاً جماليا، وحدي غالباً وفي ما خيّل لي أنه عزلة ميتافيزيقية شعرية لا براء منها، وها هي مثلاً مرة من المرات – في استفتاء مثل استفتائنا الحالي- التي أجد لي فيها كوة جديدة للاتصال بالعالم الكبير البعيد عن عالمي الصغير، وأجد بالنتيجة مستقبلاً شعرياً طفيفاً حميماً، موطئ قدم ثقافي - حتى لو كان بشأن سياسات الشعر واستراتيجياته وليس إزاء نص شعري من النصوص - وفي بلد عزيز مثل المغرب. أجد، بمعنى من المعاني، مستقبلا وأفقا جديدا للنص الشعري. إن قياس مستقبل الشعر لهذا السبب هو قياس للرقعة بالغة الصغر والهشاشة والحساسية للمُصْغِين القلائل لنبضات ما نسميه شعراً. إن تكاثرهم يدل على أن ثمة عافية وأملاً، وهذان الأخيران ينموان ببطء شديد مرير لكنه يطلع واثقاً بإيقاع هادئ مثل نمو النبتة. لقد كان الشعر يتيماً على الدوام، يتيماً مشحون القلب بكل أسى وكل فجيعة وحقيقة، بل بكل اغتراب مُضاعَف (هذا التضاعف الذي كانَ ريلكه يلح عليه)، وكل جمال عذب ومر، مشحون القلب بالأسى حتى لا أقول أنه مبلول العينين.

سأقول دون مواربة أن ازدهار فعل القراءة وتثقيف الحواس وهما عمليتان سوسيولوجيتان شاملتان، يوسعان من امكانيات المستقبل الشعري. وهو ما يحدث في أوربا وأمريكا اللتين لا تعانيان، بالحدة ذاتها، من وطأة الإشكالية المقترحة عن مستقبل الشعر مثلما نعاني نحن رغم كل مزاعمنا عن كون الشعر هو إرثنا الإبداعي التاريخي والوجداني الضارب فينا. ذلك الإزدهار هناك، ليس سوى ازدهار مُلتبس للكائن الآدمي الذي يقع الشعر في قلب مشاغله بطريقةٍ من الطرق.

لنر بأن ازدهارَ الإنسان هو ازدهار لمفهوم الاستعارة التي هي الآن، في يقيني، جوهر الشعرية. مثل هذا الازدهار سيحوّل بفعل الكلام الإنسان نفسه إلى أفق راقٍ، إلى أفق مهذب، إلى مستوى عالٍ من الاستخدام اليومي للعبارة المشذّبة ومستوى ثانٍ من المخاطبة للآخر، المخاطبة مُداوَرَة، وبرهافة، وبطريقة سيسميها ابن خلدون بالكَيسة، أي أنه سيرفع العبارة العادية إلى مصاف الاستعارة: الشعر.

لنتجوّل في العالم العربي ولنر أن ازدهاراً، مهما كان طفيفاً، لعملية القراءة في بلد معين مقابل تراجعها الدرامي في بلد آخر منه، وأن تشذيبا صغيراً للحواس في المدارس كما انتعاشا روحياً نسبيا للبشر في رقعة منه مقارنةً بتخلفها المهول في بلد مجاور، مؤشرات بوضوح في نسبة قراءة الشعر والحساسية إزاءه تأويلاً وتقبلاً.

لكن تحوُّل الفعل الشعري، إبداعاً وتقبلاً، إلى نشاط نخبوي ضيق كما هو حادث في مجمل الثقافة العربية هو دليل اختلال واختلاط وتدهور، ليس في الحقل الأدبي وحده.

أن يكون مُنتِج الشعر اليوم هو قارئه، يعني أن لا قراء للشعر اليوم ولا إقبال لهذا السبب على نشره.

مستقبل الشعر رهين بالمحيط الثقافي، وأكاد أقول السياسي بمعناه اليوناني: فعل المواطن في المدينة cité.إنه رهين بالمستوى الثقافي العام للفرد العربي، وحساسية مساهمته في تشييد عمارة الجَمال. لذا فليس الشعر قارةً منعزلةً رغم أنه الصوت الأجش، بل الأبح المنفرد في براريها، غير أن هامشيته المبحوحة تظل قادرة على الوصول، بسبب بحتها بالضبط، لأوساط كثيرة.

إن الهامشيَ جوهريٌّ وجذريٌّ في حالات كثيرة، لعل الشعر دليل باهرٌ عليها.

مستقبل الشعر لصيقٌ بمصير البشرية، ويمشي وحده ثابت الخطى بالتوازي مع المتغيرات التقنية ووسائل الاتصال السمعية والبصرية، لأنه يحورها لصالح رؤيته الخاصة به. إن دراسة الصورة أو الإشهارات الحديثة أو مجازات الوسائط السمعية والبصرية، ستدل عينا ثاقبة أن الشعر يتغلغل حرفياً فيها كلها، وحاضر لهذا السبب بقوة في العالم.

إن تهميش المكتوب، الراقي، الشعري في ثقافة العرب الراهنة، لصالح فضائيات هوائية ومطبوعات ممحوة مهمومة بالآني، الجنسي البليدوي باسم التحرر، أو الغاضب السعاري الشعاري باسم الاتجاه الآخر، سريعات العطب لا تصلح دليلاً على مصائر البشر جميعا ومراجعهم الروحية، لأن الغالبية السائدة مما هو متدنٍ ثقافياً، شعرياً وأيقونياً، وعلى كل صعيد لم تعد مثالاً أو مرموزاً صالحاً لقياس شيء. العكس هو الصحيح في الغالب: فإن الأقلية المركونة جانباً هي الضمير المقدر لضمائر مستترة. هذه الأقلية هي خيرة شعراء العرب كما أظن.

ومن دون مكابرة من ذاك النوع المعروف لدى المظلومين نفكر ونقول: إن لم يربح شاعرٌ عربيٌ معاصر شيئا ماديا كبيراً مثلاً لقاء جهده الإبداعي المثابر مقارنة بمغنية ساذجة تغني "طقطوقة" مسجوعة فلا يعني الأمر أن المستقبل "للطقاطيق" الشعرية والنثرية والإعلامية على مستوى العالم العربي.

مستقبل الشعر مرهون بكمية العناء الإنساني المُختصر في قصيدة فريدة. وهي قضية لا شأن لها بالحسابات قصيرة النظر ولا بالفترات المظلمة (تسمى المنحطة غالباً) في تاريخ أمةٍ من الأمم.

أظن بأننا نعيش عصر انحطاط عربي فريد، بعد نهضة قصيرة سرعانَ ما أجهضت، وأظن أننا نعيش في (فتنة كبرى) جديدة ضاربة من جهة أخرى في بلدان كثيرة لا تُقارن إلا بالفتنة الكبرى التي نعرفها تقريبياً في كتب التاريخ. غير أن لا هذا ولا ذاك قد قاد إلى انحطاط شعري بالفعل، وبالتالي فلو أن مصائر الفتن الكبرى الممتدة أفقيا قد صارت إلى الزوال فلا أظن أن تجربة الشعر العربي المحايث لها كانت من الطبيعة الأفقية نفسها، وأنه لن يصير بالتالي إلى المصير نفسه لأنه ذو طبيعية عمودية في أحسن نماذجه، أي أنه يضرب في باطن ضمير إنساني له أفق مختلف تماماً. أفق شعري.

إن أفضل نماذج الشعر العربي المعاصر تقدم للمستقبل شهادات لا تقدر لكنها غير مسموعة اللحظة. ويقوم الشعراء الآن، كما أزعم، بدور الشهود في الأقل، وهي مهمة تندرج في الجمالي اللائق بالمستقبل وبالمحلوم به. لم يعد الشعر محض شهادة على حقبة كما نعرف، لكنه يقوم بذلك رغماً عنه، سواءٌ عبر لغته المخلوطة بلكنات عصره أو عبر اهتمامات زمانه التي تطلع منها العبر الكونية الشاملة.

الشهود ذوو الأعين النجل اليوم هم خيرة الشعراء العرب، خاصة المهمشين منهم. أظن مرة أخرى جازماً أن المستقبل للشعراء البارعين المهمشين في ثقافة العرب القائمة دائماً على فكرة (الواحدية) على كل صعيد ديني وعائلي وشعري. لنضف للواحدية الشعرية العربية هذه فكرة (النجم الشعري)، كبيراً أو صغيراً، المصنوع عبر الأكذوبة الإعلامية أو السياسية أو الإيروتيكية، خاصة في بلدان عربية محددة، أو الإشاعة المعممة حيث لا يقرأ أحدٌ قدر ما يتسمع ويتلقط الأخبار، أو عبر عمل حثيث من أعمال الشطار النافقين المال على كتبهم وبريدهم وسفراتهم للترويج لبضاعة لا ندري بعد قيمتها. إن قيم الشطارة، في غياب النقد والمؤسسات وشيوع الإشاعات، ستؤثر إلى حين في المستقبل القريب للشعر العربي ولكن ليس في مستقبله الأبعد.

إن اختلال قيم الاتصال القديمة بين القارئ والنص الشعري، القائمة على الكتاب المطبوع فحسب أو النص المنشور فقط في صحيفة، لصالح منظومة ميديا مختلفة جوهرياً، الأنترنيت، سيعمل عمله في مستقبل الشعر ولصالحه في الغالب. سيبقى للديوان الشعري نكهة وعبق لا يعوضان، لكن الأنترنيت يفكك تفكيكاً النسق الواحدي، القمعي في جوهرة للاستئثار بالنشر والترويج وحتى ترجمة الشعر، في العالم العربي. وفي عملية التفكيك المستحبة عربياً إلى أبعد الحدود ثمة بالطبع مشكلات من نوع غير مألوف حتى الآن، ففيها ستنشأ علاقات جديدة لا يستطيع العقل النقدي الرصين ممارسة سطوته عليها، أي سجاله العميق معها، وستنسرب بكل اتجاه. لكن انسرابها أفضل دائما من الواحدية القهرية في الثقافة العربية.

ثمة مستقبل من نمط غير معهود سابقاً للشعر وهو يتجول في شبكة الأنترنيت عابراً للقارات ضمن اشتراطات ثقافية معولمة، تنطوي على المخاطر كما تحتوي على الفضائل. أتكلم بالطبع عن اشتراطات جمالية قبل أي شرط آخر. هناك أصوات شابة طرية، وهناك تجارب نسوية جريئة وهناك مثقفون لن يكونوا مقبولين البتة في ثقافة العرب، ممن عبروا جميعاً عن نزعاتهم الشعرية، ركيكة المستوى أو رصينته، بسرعة لم تكن ممكنة في ظل نسق التواصل ما قبل- الأنترنيتي. وفي خضم هذه الحركة المستجدة للشعر وقعت سجالات واستشهادات في أوساط جديدة تماماً على الوسط الشعري وفي بقاع نائية وأرياف بعيدة في العالم العربي. لنعترف بأننا كسبنا قراء جُدداً لم نكن نتوقعهم من المغرب مثلا ومن الجزيرة العربية خاصة.

الواحديون والمكرسون عن حق وباطل والريادات الأزلية وبعض المعروفين أكثر من غيرهم في أجيالهم لن يرضيهم، بل سيستفزهم أمر مثل هذا، لكنهم لن يمتلكوا أبداً ردة فعل فاعلة إزاءه. ثمة وفرة تصل حد الإفراط في الوسائط الجديدة وثمة استسهال في كتابة الشعر وترويجه على الأنترنيت، وكلها ظواهر ستصير إلى زوال. المستقبل سيبقى، كما ظل على الدوام، للنص الشعري الباهر.

"الشعر ضرورةٌ، وآه لو أعرف لماذا". صرخة جان كوكتو الملتاعة تبرهن على كل حال على أن الشعر ضرورة. أن نعرف لماذا هو ضرورة معناه أننا نقف في محض تأملٍ مفيد. فالشعر يقول المعنى الخفي والحميمي في العالم والظاهرات الكبرى فيه والعلاقات السرية بين كائناته، البشرية وغير البشرية. تقع ضرورته في أنه يقول ما لم يقله النثر العادي وأنه يقتنص العلائق الداخلية بين الأشياء، بطريقة فيها الكثير من (الانفعال) والكثير من (التعقل) في آن واحد وبالتزامن. وهذان الأمران هما ما سمحا، من جهة، بإقران الشعر بالفلسفة لجهة قدراته التجريدية في قول الظواهر والمعاني، وربطه من جهة أخرى بالغناء أو المشاعر الحارة أو العواطف الدفاقة. البلاغة الشعرية، إذا ما فهمناها بمعنى قدرات المجاز على القيام بعملتي الربط المتزامنتين الموصوفتين أعلاه، وليس كما تفهم غالبا في بعض الكتابات النقدية الجاهلة على أنها تكلّف وتقعر والوقوف عند تخوم الماضي، البلاغة والاستعارات الضاربة في الروح تبرهن على أن المستقبل ظل دائما للشعر بسبب قدراته على بث المعاني الوجودية الأساسية الكبيرة. وسيظل...

قصائد من لويس ماكنيس (١٩٠٧- ١٩٦٣)

ترجمة وتقديم : فاضل السلطاني

تعرفنا على اسم لويس ماكنيس لأول مرة حين رثاه السيّاب بقصيدة نذكر منها مطلعها:
أتى نعيه اليوم،
جاب كلّ المحيطات، حتى أتاني
فلم تجر بالأدمع المقلتان.

وترجم له السيّاب، على ما نذكر، ضمن مختاراته من الشعر الانجليزي التي نشرها في كتاب هو الوحيد له في ترجمة الشعر، وما عدا ذلك لا نعرف عربياً الشيء الكثير عن تجربة ماكنيس الشعرية.

هذه التجربة لم تقيّم تقييماً حقيقيا في بلاده أيضا، بسبب طغيان صوت أودن على أصوات مجايليه من الشعراء، وخاصة في الثلاثينيات. لكن هناك شبه إجماع الآن على أن ماكنيس هو الشاعر الأهم بعد أودن في تلك الفترة الذهبية من تاريخ الشعر الانجليزي الحديث.

وهناك من يرى أن إنجازه الفني في فترة ما بعد الحرب تجاوز حتى أودن. وما يميز ماكنيس هو إحساسه المأساوي بالحياة الذي يتخلل قصائده، والذي ينتقل إلينا عبر إيقاع سريع حار تنصهر فيه الافكار، فلا نعد نحس بوجودها. إنها تتحول الى اكبر قدر من الانفعال، فتنجح في اصابتنا بالعدوى.

ولعل رؤيته التراجيدية هذه هي التي حالت دون انتمائه للتنظيمات السياسية اليسارية التي ازدهرت في تلك الفترة، وانضم اليها معظم مجايليه كاودن وسبندر وايشرود وغيرهم .

سيرة ذاتية

في طفولتي كانت الأشجار خضراء
وكنت أرى الكثير.
عد مبكراً أو لا تعد أبداً.
أبي جعل الحيطان ترتج،
ولبس ياقته بالمقلوب،
عد مبكراً أو لا تعد أبداً.
لبست أمي ثوباً أصفر.
برقة، برقة.. رقة!
عد مبكراً أو لا تعد أبداً.
عندما اصبحت في الخامسة
داهمتني الأحلام السوداء،
فلم يعد بعدها أي شيء مثلما كان.
عد مبكراً أو لا تعد أبداً.

كان الظلام يتحدث مع الموتى
والمصباح الأسود جنب السرير.
عد مبكراً أو لا تعد أبداً.
عندما استيقظت لم يهتموا.
لا أحد، لا أحد كان هناك.
عد مبكراً أو لا تعد أبداً.
عندما صرخ رعبي المكتوم
لا أحد، لا أحد أجابني.
عد مبكراً او لا تعد أبداً.
استيقظت، رأتني الشمس الباردة
أسير وحيداً
عد مبكراً أو لا تعد أبداً.

رغبات ما قبل الولادة

لم اولد بعد، آه اسمعوني
لا تدعوا الخفاش مصاص الدماء
أو الجرذي
أو القاقم أو الغول الأعوج القدمين
تقترب مني.
لم أولد بعد، عزّوني
إني أخاف أن يسوّرني الجنس البشري بأسوار عالية،
يخدّرني بمخدرات قوية، بأكاذيب ذكية
فوق دواليب التعذيب السوداء

يعذبني
في حمامات الدم يدحرجني،
لم أولد بعد. زوّدوني
بماء لترقّصوني فيه، بعشب لينمو
من أجلي،
بأشجار لتتكلم معي، بسماء
لتغني لي،
بطيور وضوء أبيض في مؤخرة عقلي
ليهديني
لم أولد بعد، سامحوني
للخطايا التي سيرتكبها العالم فيّ،
لكلماتي
عندما تقولني، لأفكاري عندما تفكّرني
لخيانتي يسببها الخائنون رغماً عني.

"الكلمة" في عددها الجديد

رواية " اللاسؤال واللاجواب " لفؤاد التكرلي وحكايات (محظورة) من " قول يا طير.. "

المدى / خاص

جاء العدد الرابع من مجلة الكلمة (إبريل ٢٠٠٧)، حافلاً بالعديد من النصوص الإبداعية من سرد ونثر وشعر ونقد ودراسات. وكانت الكلمة، وهي مجلة فكرية أدبية شهرية تصدر إنترنتيا من لندن ويرأس تحريرها الكاتب والناقد صبري حافظ، قد استطاعت خلال ثلاثة أشهر من صدورها أن تفرض نفسها، وبقوة في المشهد الثقافي، لا بوصفها أول مطبوعة إلكترونية من نوعها فحسب، وإنما لما تتميز به من تنوع وغنى في المواد. كذلك "سنت" المجلة سياسة نشر لا سابق لها تعتمد على نشر روايات كاملة، لا مجرد فصول، كما جرت العادة بالنسبة للمطبوعات الورقية.

في العدد الجديد، تهدي "الكلمة" قراءها رواية "اللاسؤال واللاجواب" للروائي العراقي فؤاد التكرلي، التي يتطرق فيها إلى مرحلة عصيبة من تاريخ العراق الحديث، مستعيداً الجرح الذي خلفه الحصار على الإنسان العراقي. واستجابةً لحماسة القراء تجاه نشر "الكتب" كاملة، تدشن الكلمة في عددها الجديد "مشروع النشر الشعري الكامل"، من خلال نشر ديوان "أيام عادية" للشاعر محمد سعد شحاتة.

وكان صبري حافظ، رئيس تحرير "الكلمة"، قد صدّر للعدد الجديد بافتتاحية بعنوان "حدود التصور وتجاوزات الجغرافيا"، أشاد فيها باستجابة القراء الكبيرة لمشروع "الكلمة"، كجهة نشر فردية مستقلة، بعدما تخطت عدد زيارات المجلة لشهر فبراير الماضي ٤١ ألفاً، لافتاً إلى أن المجلة قد كسبت قراءً وكتاباً تواقين للمساهمة فيها، حاضنة الآمال والأمنيات بمنبر تعبيري قادر على تجاوز لا الحدود الجغرافية فحسب، وإنما الرقابية.

من أبرز ما تضمنته الكلمة "ملف العدد"، الذي تسعى المجلة إلى اعتماده بصفة شبه شهرية. ولقد خصصت الكلمة ملف هذا العدد لمحكمة التفتيش التي طالت كتاب "قول يا طير..."، الكتاب "السفر" الذي يؤرخ للحكاية الشعبية الفلسطينية ويلقي الضوء على جانب من أهم جوانب التراث الإنساني في فلسطين. أعدت الملف الروائية والقاصة الفلسطينية حزامة حبايب. وإلى جانب مجموعة من المقالات التي تعرضت للمحاولة "الآثمة" التي هدفت إلى مصادرة هذا الإرث الحكائي الفريد، تنفرد الكلمة بنشر ست حكايات من "قول يا طير..."، وتقديمها بصورة تتيح للقارئ العربي من شرق المعمورة إلى غربها الاطلاع على هذا النوع من الأدب الشفاهي بيسر.

في باب الدراسات، يقدم يحيى بن الوليد تحليلاً لجانب فكري لعبدالله العروي، أحد أبرز وجوه الثقافة المغربية، لم يحظ من قبل بالدرس، وهو جانب الناقد الأدبي. كما يتناول فخري صالح في "تحولات النقد في زمن الصورة" تأثير أشكال الميديا الحديثة وصيغها على النقد. وتحت عنوان "التشظي والتناص في المرايا" تقدم الباحثة البريطانية كريستينا فيليبس دراسة تتناول آليات التناص وتحول النوع الروائي في أعمال نجيب محفوظ الأخيرة، وخاصة روايته المرايا. من الدراسات الأخرى "الرواية السياسية والتخييل السياسي" لجميل حمداوي التي تتناول طبيعة الرواية السياسية وسماتها، و"آفاق جديدة: فن الكتابة الرقمية" لسعيد يقطين يواصل فيها استقصاءاته الجديدة حول هذا الموضوع الشيق. ودراسة عن "نورالدين فرح واستعادة مقديشو" لإبراهيم درويش، يقدم فيها قراءة لعالم الكاتب الصومالي الأبرز.

في باب النقد، نقرأ شهادة الروائي العراقي عبد الخالق الركابي "الرواية والتاريخ: استلهام الماضي من أجل الحاضر"، و"شخصيات سينمائية" لمنتصر القفاش و"تجليات الصراع والاغتراب في بنية السرد لنصر جميل شعث و"يوتوبيا الأنوثة" لبريهان قمق، و"لا يزال السياب يشرق" لسليم جواد.

أما في زاوية الكتب، فيقدم صبري حافظ دراسة في رواية "متاهة مريم" للكاتبة المصرية منصورة عزالدين، كما يقدم محمد الداهي قراءة في كتاب "جمالية السرد النسائي" للكاتبة المغربية رشيدة بنمسعود، ويغوص شوقي يحيى في رواية "قانون الوراثة" للكاتب المصري ياسر عبداللطيف، بينما يتأمل عبدالحق ميفراني مجموعة "أجنحة الحكي" للقاصة المغربية ربيعة ريحان، إلى جانب مراجعة بتوقيع ممدوح الشيخ لكتاب "علم تاريخ الأفكار" لعصام عبدالله وقراءة تحليلية لعاطف سليمان في رواية "واحة الغروب" لبهاء طاهر.

بالإضافة إلى أبواب المجلة الثابتة مثل "علامات" ورسائل وتقارير" و"أنشطة ثقافية"، التي تغطي راهن الوضع الثقافي في الوطن العربي، حفلت الكلمة كذلك بنصوص شعرية لسعدي يوسف وحسن طلب وميلود لقاح وزياد آل الشيخ ومحمد بلمو وعبدالوهاب العزاوي.

وفي السرد والقص، نقرأ مسرحية "الجريمة" لأحمد إبراهيم الفقيه ومجموعة من النصوص القصصية لسعيد الكفراوي ورياض بيدس وحزامة حبايب وزياد خداش.